

سلسلة: إتحاف الحاضر والبادي بتفريغ أشرطة العلامة الشيخ محمد بن هادي (٤٠)

تفريغ محاضرة بعنوان:

«أضواء على حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه»

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن هادي المدخلي حفظه الله

اعتناء

أبي قصي المدني

— عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين أجمعين —

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة بعنوان: «أضواء على حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه»

لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن هادي المدخلي - حفظه الله - (١)

«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد:

فإنه ليسعدني أن ألتقي بإخوة لي في الله في هذا الصَّرح العظيم، وفي هذا المَعْلَم الشامخ من معالم الإسلام؛ هذه الجامعة الإسلامية المباركة التي كم نفع الله ﷻ بها، وبمن تخرَّجوا منها، وتعلَّموا فيها، وعادوا إلى بلدانهم، بل وربما تركوا بلدانهم لمَّا وجدوا غيرهم قد كفاهم المؤونة في ذلك، وغادر إلى غير قُطره، إلى قُطرٍ آخر، ينشر فيه دين الله، داعيةً إلى كتاب الله، وإلى سنة

(١) محاضرة قديمة ألقاها فضيلته بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ولم أقف على تاريخها.

رسول الله ﷺ، مُعلِّماً عباد الله ما جاء في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ من عقائد، وأحكام، ومُحذِّراً إياهم مما يضعفهم، ويُصدِّع بنيانهم، ويضعف وحدتهم، ويُسلِّط عليهم عدوهم.

إنَّ هذه الجامعة المباركة لها جهودٌ مباركةٌ طيبة في إخراج أمثالكم، ولكم ولإخوانكم الذين سبقوكم جهودٌ، فلاخوانكم الجهود المشكورة المذكورة، ويُنتظر منكم أيضاً أن تُكْمِلُوا عِقْدَهُمْ، وأن تواصلوا المسيرة على طريقتهم في الدعوة إلى دين الله، وتبصير عباد الله بما أوجب الله -جلَّ وعلا- عليهم من حقه ﷻ؛ وذلك بعبادته وحده لا شريك له، وحق رسوله ﷺ؛ وذلك بمتابعته في كل ما جاء به في سُنَّته -عليه الصلاة والسلام-، وتحذير الأمة مما يهدم عليها دينها، أو يضعفه.

أيها الإخوة في الله:

إنَّ هذا اللقاء لقاء أُخُوَّة بيننا وبينكم، ولقاء تواصلٍ، وخير ما أُوصي به نفسي وإياكم: كلام رسول الله ﷺ الذي هو وحيُّ يوحى، والذي وصَّى به أصحابه الكرام البررة الأخيار في آخر مدة حياته -عليه الصلاة والسلام-، فلا نحن بأغنى عنهم أو منهم في هذا الباب، ولا أيضاً نحن بأفقه منهم، ومع ذلك وصَّاهم رسول الله ﷺ بهذه الوصية العظيمة التي كلما سمعها السامع، وكلما نظر فيها الناظر، وقرأ ما كُتِبَ حولها القارئ؛ كأننا نسمعها لأول وهلة.

إنَّ هذا الأمر الذي أُوصي به نفسي وإياكم في مقدمة هذا اللقاء:

هو ما جاء في حديث العرباض بن سارية -رضي الله تعالى عنه- أنَّ رسول الله ﷺ في آخر حياته وعظهم موعظةً بليغةً، كما قال العرباض ؓ: ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَأَنَّا مَوْعِظَةٌ مُودَّعٍ، فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ

بُسْتَيَّ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (١).

أيها الأُحبة:

هذا الحديث جمع الخير كله، ولا يُسْتَعْرَبُ ذلك، فقائله هو رسول الله ﷺ الذي أُوتِيَ جوامع الكلم، واختُصِرَ له الحديث اختصارًا؛ فَيُعْبَرُ عن المعاني الواسعة الشاسعة المتنوعة المتعددة التي لو كُتِبَتْ فيها المجلدات ما أحاطت بما فيها من الخير، والعبر، والحكم، والمنافع، والآداب، والأحكام، يُعْبَرُ عن ذلك كله بالكلمات اليسيرة، وهذا مما خصَّه الله به، أُوتِيَ جوامع الكلم ﷺ.

فِرَاسُ وصيته -عليه الصلاة والسلام-، نِعَمَ الْمُوصِي بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي -عليه الصلاة والسلام-، وَنِعَمَ -والله- مَنْ أَوْصَاهُمْ؛ هُم أَصْحَابُهُ -رضي الله تعالى عنهم- الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُوصَوْنَ، وَالْمُوصِي سَيِّدُ الْخَلْقِ -صلوات الله وسلامه عليه-، (قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَانَتْهَا مَوْعِظَةٌ مُودَعٍ فَأَوْصِنَا) فَأَوَّلُ شَيْءٍ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا: ذِكَاةُ الصَّحَابَةِ -رضي الله تعالى عنهم- حيث أدركوا من تعريضه -عليه الصلاة والسلام- بأنه يُودَّعُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ الْبَلِيغَةِ، فَقَدْ فَهَمُوا ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ، وَالتَّعْلِيمِ، وَهُمْ أَذْكَى الْخَلْقِ، وَأَتَقَى الْخَلْقِ، وَأَزْكَى الْخَلْقِ،

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم (٤٦٠٧)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٤٣)، وأحمد في «مسنده» برقم (١٧١٤٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» برقم (٢٤٥٥).

وأفضل الخلق بعد الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -، فرضي الله عنهم أجمعين، وقاتل الله من يطعن فيهم، هذا أول ما يؤخذ؛ ذكائهم ﷺ.

ثم بعد ذلك: **شدة حرصهم على العلم، وأيضاً: حرصهم على التزود بما ينفعهم، امتثالاً لأمر ربهم - جلّ وعلا-: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾** [البقرة: ١٩٧]، يا أصحاب العقول، فهم يعرفون ذلك، (فقالوا: كأنها مَوْعِظَةٌ مُّوَدَّعٍ فَأَوْصِنَا) المودّع لا بد وأن يُوصي بأهم الأمور التي يرى أن من بعده يحتاج إلى الوصية بها، فأوصى - عليه الصلاة والسلام - في هذا الحديث بأربعة أمور، عليها جُماع الخير:

الأمر الأول: الوصية بتقوى الله - جلّ وعلا -، وما عسانا أن نقول في ذلك! إنَّ اللسان ليتعب، وإنَّ المداد لينفد، وإنَّ الورق لينتهي [...] ^(١) بما كُتِبَ في هذا الباب، فالتقوى، ومعناها، ومدلولها، وأنواعها، تعريفاتها، كلام أهل العلم في ذلك كثيرٌ وكثيرٌ وكثيرٌ.

فأول ما أوصى به رسول الله - عليه الصلاة والسلام - هذه الوصية الجامعة، وهذا الأصل العظيم: التقوى (أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ).

فأنا أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله - جلّ وعلا -:

مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُحْمَدُ فِي عَوَاقِبِهِ وَيَكْفِيهِ شَرَّ مَنْ عَزُّوا وَمَنْ هَانُوا ^(٢)

هذه الوصية من النبي ﷺ هي وصية الله له، فوصى بها أصحابه وأتباعهم - رضي الله تعالى عنهم أجمعين -.

(١) كلمة أو كلمتين لم أتبينها.

(٢) من منظومة: «عنوان الحكم» لأبي الفتح البستي.

قال: (أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ)، قال الله -جلّ وعلا-: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾

[البقرة: ١٩٧].

فأوصانا الله -جلّ وعلا- على لسان رسوله ﷺ بهذه الوصية، والله قد وصّانا بها في كلامه العزيز: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فتقوى الله كلمة جامعة لكل خير، وجماعها: أن تعمل بنور من الله -أو على نور من الله- ترجو ثواب الله، وتخشى عقاب الله -جلّ وعلا-.

ولهذا يقول القائل:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ^(١)

فالتقي: هو من يتقي العذاب، فيتقي سوء المنقلب يوم القيامة، ويتقي جهنم -عافانا الله وإياكم منها-، وإذا اتقى ذلك شمر على باب الطاعة، وأسرع إلى إجابة باريه وخالقه ﷻ، واجتهد في متابعة رسوله ﷺ الذي وصّاه بهذه الوصية كما وصّاه من قبل ربنا -جلّ وعلا-، فأقبل على أوامر الله، يعمل منها بقدر الاستطاعة، وأما المناهي فلا، على حدّ قوله -عليه الصلاة والسلام-: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ» لا كلام «وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

فالشر أَوْصِدَ بابه، ولا تَلَجُهُ، بل ولا تقاربه، والخير أَبْذُلُ استطاعتك، وإذا علم الله -جلّ وعلا- منك الصدق، والإخلاص، والاجتهاد؛ فإنه يجزيك خير ما يجزي به مَنْ صدقه ﷻ.

(١) انظر: «اللباب الآداب» (٢٢/١) لأسامة بن منقذ.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٧٢٨٨)، ومسلم في «صحيحه» برقم (١٣٣٧).

فالأوامر على العبد أن يتقي الله فيها قدر الاستطاعة، أما النواهي فالكف مطلقاً، وهذا من رحمة الله -جلّ وعلا- بنا.

ولذلك قال النبي ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تَحْصُوا» لا تستطيعون «وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ» خرّجه الإمام أحمد بإسناد حسن^(١).

فالخاص: استقيموا ولن تحصوا، في الاستقامة على أوامر الله ما تستطيع تأتي بجميع ما افترض الله عليك ما تُخل بشيء أبداً، ولكن سدّد وقارب، ولا تطيل في الكلام في هذا؛ لأنّ المقام لو استطرّدنا فيه لما اكتفينا بالليل كله من ذكر كلام أهل العلم على حسب ما أتانا الله -جلّ وعلا- من معرفة وإطلاع نحن وإياكم جميعاً في هذا الباب.

فالخاص: **التقوى هي ملاك كل خير، ومفتاح كل خير**، فمن راقب الله -جلّ وعلا-، واتقاه، وتقرّب إليه بفعل أوامره حسب طاقته، واجتنب النواهي مطلقاً؛ فذلك الذي يُرجى له الخير، فلتتق الله ﷻ في عقيدتنا، وتخليصها من شوائب الشرك، وفي الحرص على دعوة الناس إلى الحق، والهدى، والتوحيد، وانتشالهم من براثن الشرك، وإخراجهم إلى هذا الدين النقي الطاهر الذي لو كان موسى ﷺ حياً حين بعثه محمد ﷺ ما وسعه إلا أن يدخل فيه، وأن يتّبعه -عليه الصلاة والسلام-.

ثم لتتق الله في أنفسنا، في معاملتنا، مع أهلينا، وإخواننا، وأشيائنا، وأمّتنا كافةً على قدر الاستطاعة، والله ﷻ هو المعين، ﴿لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا **أَكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) في «مسنده» برقم (٢٢٤٣٦)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٧٧)، وصححه الألباني في «الإرواء» برقم (٤١٢).

وجاء في دعاء المؤمنين في هذه الآيات أن الله -جلّ وعلا- لما سمع دعاء عباده المؤمنين:

﴿وَلَا تُحْمَلْنَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: (قد فعلت) (١)، لكن هذا متى؟ بعد أن

ظَلَّت قلوبهم، وخضعت رقابهم، ولهجت ألسنتهم بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

جاء في صحيح مسلم (٢): أن أصحاب رسول الله ﷺ لما نزلت عليه قول الله ﷻ: ﴿لِلَّهِ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-: يا رسول الله، إنه قد أنزلت عليك آية في كتاب الله

ولا نرى أننا نطيعها، قال: «مه! أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل من قبلكم: نؤمن ببعض

الكتاب ونكفر ببعض، ولكن كونوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير»، فقالوها

ولهجوا بها، فأنزل الله -جلّ وعلا- ما ينسخها في قوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فالخاص: إذا اتقى العبد ربه -جلّ وعلا-، وشمر إلى الطاعات، وعلم الله منه الصدق

في ذلك؛ وفقه، وقواه على ما لم يكن يحسب أنه يستطيع عليه، ووفقه أيضاً للابتعاد عن الشر.

فنسأل الله -جلّ وعلا- أن يرزقنا وإياكم التقوى، وأن يبصّرنا وإياكم في ذلك، وأن

يجعلنا وإياكم ممن يسلك هذا [...] (٣) على نورٍ من ربه.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١٢٦).

(٢) برقم (١٢٥)، وفيه أن النبي ﷺ قال لهم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

(٣) كلمة لم أتبينها.

وأما الوصية الثانية: فهي السمع والطاعة، الوصية الأولى عامة لكل مسلم، والوصية الثانية: السمع والطاعة، فهي أيضاً عامة لكل مسلم، السمع والطاعة لمن؟ لولاة الأمر الذين يوليهم الله -جلّ وعلا- مقاليد أمور المسلمين، لأنّ بالسمع والطاعة تنتظم معاش المسلمين فتصان ثغورهم، وتُحمى حدودهم من أعدائهم، وتُؤمن سبلهم من اللصوص، وقطّاع الطرق، والمفسدين، وتُحمى أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، وتقوم أسواقهم، وتظهر عبادتهم لربهم -جلّ وعلا-، فأَي نعمة بعد هذه النعمة في الدنيا؟ إذا عَبْدَ العبدُ ربه آمناً مطمئناً، وأَمِنَ على ماله، وأَمِنَ على عرضه، وأهله، وأَمِنَ على نفسه؛ فلا يُسفك دمه، أَمِنَت سبله، حُجِّت ثغوره مع أعدائه، حُكِمَ بينه وبين من يظلمه ويعتدي عليه، فأَي نعمة بعد هذه؟

إنّ الأسواق تقوم، والأرزاق تُدرّ، والسُّبُل تُسلك، ويُحجّ إلى بيت الله الحرام، وتقام الشعائر، وتظهر العبادات، فهذه من النعم العظيمة التي فيها صلاح الدين والدنيا. ثمّ أكّد النبي ﷺ هذا الأمر بأنه يشق على النفوس، أكّده تأكيداً غايةً في الوضوح، قال: (وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ) النفوس لا تقبل بأن يتولّى عليها الوضيع، لكن إن غلب عليها هذا الوضيع، وظهر عليها بقوته، واستتب له الوضع، وحصل الذي ذكرنا من المصالح؛ وجب السمع والطاعة له.

فإنّ مفسدة كونه عبداً في هذا الجانب مغمورة في جانب المصالح التي يجنيها المسلمون من تأمر هؤلاء الأمراء عليهم، كونه عبداً هذه المفسدة التي يرونها هم مفسدة وغضاضة في أعينهم في مقابلها مصالح عظيمة؛ تأمين السُّبُل، صيانة الأعراض، صيانة الدماء، حماية الأموال، حماية الثغور والحدود، تأمين الخائف، الانتصار للمظلوم من الظالم، قيام الأسواق، قيام الشعائر التعبدية، تطبيق الأحكام الشرعية على حدّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالحاصل:

هذه الوصية الثانية؛ وصية السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، وقد وصّى بها ﷺ في حين عدم وجود الفرقة؛ تنبيهاً على تأكد هذا الأمر إذا وُجد، وإذا وجدت أسباب الفرقة؛ فإنه يتأكد على المسلم أن يسمع ويطيع، طبعاً بالشرائط المذكورة في غير معصية الله -جلّ وعلا-، فهذه الوصية الثانية، سمعنا كم فيها من الخير، كم فيها من الخير الديني والدنيوي؛ قيام الأسواق، إذا جاء الخوف هل تقوم أسواق؟ الأمان على الأموال، إذا جاء الخوف هل يؤمن على الأموال؟

سبحان الله العظيم: نحن الآن نرى في بعض البلاد عملتها دينارها كان يُصرف باثني عشر أو ثلاثة عشر ريالاً، فلما جاء الخوف وجاءها البلاء صار لا يساوي ريالاً واحداً، فسبحان الله العظيم، تقوم الأسواق، تنتعش حركة التجارة، وتنتعش حركة الاقتصاد، أيضاً يأمن الناس على دمائهم، وأعراضهم، وكفى بالواقع شاهداً فيُظهر صدق ما نقوله، وكلام رسول الله ﷺ لا يحتاج إلى مثل هذه الشواهد الحالية، وأن يُستدلّ بها على صدقه، فهو الصادق المصدوق مطلقاً -عليه الصلاة والسلام-.

فكم، وكم، وكم من الأحوال القائمة الآن ممن لا يأمن على نفسه، ولا على عرضه، ولا على ماله، ولا على نفسه في إقامة شعائره إلى غير ذلك، بسبب ماذا؟ بسبب [...] ^(١) نظام الولاية، ففي هذا مصالح عظيمة.

ونحن لا نستحي من ذكر هذا؛ لأنه وصية رسولنا ﷺ لنا، فلا نزال نُردّد وصية رسولنا لنا يُذكر بعضنا بعضاً بها، وإن رغمت أنوف، هذه الوصية الثانية.

(١) كلمة لم أتبينها، ولعلها: اختلال.

والثالثة: التمسك بالسنة النبوية عند حدوث الاختلاف: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ» الخطاب لأصحابه - عليه الصلاة والسلام - : «فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ» لا تعض على السنة بأطراف الأسنان، لا، تَمَسَّكْ باليدين، وعَضْ عليها بآخر النواجذ، بالنواجذ آخر الفم، كناية عن شدة التمسك بهذه السنة، لم؟ لأنها هي سفينة النجاة في الأمواج المتلاطمة.

يقول: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا» الاختلاف هذه هي الأمواج المتلاطمة، الفتن التي تموج كموج البحر، «يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ»^(١)، عافانا الله وإياكم من ذلك.

هذه الفتن المتلاطمة تلاطم أمواج البحار اللجج العظيمة التي مَنْ رآها قطع على نفسه إذا دخلها بأنه هالك، ليس له سبيل إلى النجاة منها إلا سفينة نوح، ﴿يَبْنِيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] إلام؟ إلى الجودي، إلى بر الأمان، هذا هو، ﴿قَالَ سَأَوَّى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

هذه السنة قال عنها أسلافنا: (إنها سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك)^(٢)، ذهب في الأمواج، أما من ركب هذه السنة وصل إلى الجودي، ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

فلا عاصم من أمر الله في الفتن إلا الاعتصام بالسنن، فالاعتصام بالسنن التمسك به عظيم؛ لأن فيه مخالفة لثلاثة أبواب كلها عظيمة:

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١١٨)، ولفظه: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا).

(٢) نُقِلَتْ عن الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - وغيره، انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٧ / ٣٣٦)، و«ذم الكلام» للهرودي (١٢٤ / ٤).

الباب الأول: باب النفس؛ لأن النفس تَوَاقَّةٌ إلى التفلت من أوامر الله، فـ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ

لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

الثاني: الاعتصام بها من الشيطان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فإذا ذُكِرَ وجاء له ذِكْرٌ في هذه الفتن تعوذت بالله منه، وسألت النجاة من الفتن، «تَعَوَّذُوا

بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ

مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(١) يقوله النبي ﷺ ولما تحدث الفتن بعد، فكيف بنا نحن ونحن

كل يوم نرى فتنةً، ونسمع فتنةً تُرَقِّقُ سابقتها! فنعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن،

التمسك بالسنة هذه نعمة عظيمة.

الباب الثالث باب الشر الذي ذكرناه: هو باب أهل الأهواء، الباب الأول: باب النفس،

الباب الثاني: باب الشيطان، الباب الثالث: باب أهل الأهواء والبدع، فإن هذه ثلاث ظلم،

النفس تَوَاقَّةٌ إلى التفلت من الأوامر، الشيطان مُزَيِّنٌ لأن تخرج عن أوامر الله كما زين للأبوين

–عليهما الصلاة والسلام– فأضلَّهما، وأغواهما، لكن سرعان ما تذكَّرا فتاب الله –جلَّ وعلا–

عليهما، «ولقد نسي آدم فنسيت ذريته، وحجد آدم –عليه الصلاة والسلام–، فجحدت ذريته،

وعصى آدم فعصت ذريته»^(٢)، لكن مَنْ تاب فإن له عبرةً بأبيه آدم –عليه الصلاة والسلام–؛

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٨٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (٣٠٧٦) وفيه قال ﷺ: (فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِيَ آدَمُ فَنُسِيتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ

ذُرِّيَّتُهُ)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٢٠٨).

حيث قال الله فيه: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، فنسأل الله -جلّ وعلا- أن يتوب علينا وعليكم جميعاً، ويهدينا وإياكم.

فالحاصل: **التمسك بالسنن فيه إرغامٌ -أيضاً- لأهل البدع والأهواء**، لأنهم لا يفتنون يدعونك إلى أن تجيبهم، فإذا تركتهم وما دَعَوْكَ واعتصمت بهذه السنة نجوت بأمر الله -جلّ وعلا-.

يقول ابن القيم:

وبالسُّنَّة الغرّاء كن متمسّكاً	هي العُرْوَةُ الوثقى التي ليس تُفَصِّمُ
تمسك بها مَسْكُ البخيلِ بِمالِه	وعَضَّ عليها بالنواجذِ تَسْلَمُ
ودَعُ عنكَ ما قد أحدثَ الناسُ بَعْدَهَا	فمَرَّتْ هاتيكَ الحوادثُ أَوْحَمُ (١)

فالسنن هي النجاة -كما قلنا لكم-، قال -عليه الصلاة والسلام- في هذا الحديث: «فإنه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا»، «اخْتِلَافًا كَثِيرًا» نكرة، عموم، أنواعاً لا تعد ولا تحصى من أنواع الاختلاف، والشر العظيم العريض الطويل في طول الدنيا وعرضها، ما المخرج من ذلك؟ السفينة هذه، سفينة نوح كما قال الزهري (٢) -رحمه الله- سفينة نوح هي السُّنَّة.

(فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي) فسُنَّتُهُ ظاهرة -عليه الصلاة والسلام-، وسُنَّةُ الخلفاء الراشدين المهديين مُتَّبَعَةٌ بأمره -عليه الصلاة والسلام-، فإنَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- قد أمرنا باتباع سُنَّتِهِم -رضي الله تعالى عنهم-.

(١) من «القصيدة الميمية» للإمام ابن القيم -رحمه الله-.

(٢) قال -رحمه الله-: (كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة)، رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٥٦/١).

وذكر سببين يجعلان الناس يقبلون على أقوال هؤلاء الأئمة المهديين الراشدين، ما هي؟

أو ما هما هذان الأمران؟

- كون أصحاب هذه السنن من الراشدين، أو كونهم راشدون.

- ثم مهديون.

فإذا كانوا مهديين: يجب علينا أن نتبع أم نخالف؟ من الهادي؟ هو الله - جلّ وعلا -.

قال الله - جلّ وعلا - لرسوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَتَدَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فلما هدى الله هؤلاء أرشد رسوله ﷺ أن نتبعهم، فإنه قد قال في حقهم - رضي الله عنهم - أسباب الاتّباع لهم؛ فوصّفوا بالرّشد، ووصّفوا بالهداية، فإذا كان المرء راشداً مهدياً فأكرم به أن يكون متبوعاً، وأن يكون مقتدى به، والله ما نالوا ذلك إلا بحبهم لرسول الله ﷺ، وحرصهم على سنّته، وتعظيمهم لأمره ونهيه - عليه الصلاة والسلام - غاية التعظيم، فنجوا، وبذلك نجا من كان معهم في عصرهم - رضي الله تعالى عنهم -، ونعم حدثت الفتن من بعد عثمان - رضي الله تعالى عنه -، ولكنها قليلة، وما استفحلت الفتن إلا بعد ذهاب هؤلاء الأربعة في أواخر عصر الصحابة، في عصر صغار الصحابة - رضي الله تعالى عنهم -.

فالصحابة أمانة لهذه الأمة، فإذا ذهب الصحابة أتى هذه الأمة ما تُوعَد.

وفِعلاً كَثُرَ الاختلاف، وشاع وذاع، وحدثت الفتن بعد انقراض جيل الصحابة - رضي

الله تعالى عنهم وأرضاهم -.

ثم لا يكفي أن تتمسك بالسنة، بل تجتنب البدعة، فتُحذَر منها كما حذَر رسولك ﷺ،

قال: «وَيَاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ» لم؟ هذا من باب قاعدة:

والضِدُّ يُظْهِرُ حَسَنَهُ الضِّدُّ وبضدّها تميّزُ الأشياءُ

يُعرَف هذا أنه طيّب إذا فقدته، وجاء ما هو شر، تقول: هاه يا ليتنا، والله لقد كنا في خير.

فإذا: البدع ما يُظْهِرُ قُبْحَهَا إِلَّا إِذَا عَرَفَ المرءُ السُّنَّةَ، ولا يُظْهِرُ أيضاً جمال السُّنَّةِ، وحسنها، وبهاءها، وكمالها، وصفاءها، وما فيها من المنافع العظيمة للناس في دينهم ودنياهم إلا إذا رُئيت شر البدع والمحدثات، فيقال: والله لقد كان الناس على الإسلام والسُّنَّة فكانوا في خير، فلما انتشرت البدعة واندثرت السُّنَّة جاء هذا الشر.

فإذا: لا بدَّ من دعوةٍ وتحذيرٍ من الضد، دعا النبي ﷺ إلى التمسك بسُنَّته، وحذَّر من البدعة، فهكذا كل داعيةٍ على منهاج رسول الله ﷺ في هذا الباب لا يكون داعيةً إلى السنة إلا إذا أكمل ذلك، وجَمَّله، وأحسنه، وأتقنه بتحذيره من ضدها، وهي البدع والمحدثات.

ولقد قام أصحاب رسول الله ﷺ بذلك خير قيام، فكانوا ينكرون على أهل الحلق الذين يجتمعون للذكر، ويُحذِّرون منهم، فيقول لهم حذيفة ويقول لهم ابن مسعود ما يقولون: (عُدُّوا سيئاتكم، فنحن ضامنون لكم بحسناتكم ألا تضيع عند الله - جلَّ وعلا-، يا معشر أصحاب محمد: ما أسرع هلكتكم، هذه آنية رسول الله ﷺ لم تكسر، وثيابه لم تبَل، وما أسرع ما خالفتهم هُداة، والله لأنتم على هدى أهدي مما كان عليه محمدٌ ﷺ وأصحابه، أو مفتتحو باب ضلالة) (١) هكذا كان حالهم -رضي الله تعالى عنهم-.

ويقول حذيفة: (يا معشر القُرَّاء، استقيموا فإنكم إن استقمتم فقد سبقتكم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً فقد ضللتكم ضلالاً بعيداً) (٢) فهذه التوجيهات لمن؟ لمعشر القُرَّاء.

فقرأة القرآن وحدها من غير تدبُّرٍ للمعاني وفهم لما أراد الله -جلَّ وعلا- من هذا الكتاب وفقهٍ فيه لا يكفي، وهذا لا يتأتَّى إلا بالتعويل على السنة، والرجوع إليها، والنظر فيها، تفسير رسول الله ﷺ لكتاب ربه، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» برقم (٢١٠)، والواسطي في «تاريخ واسط» (١/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٧٢٨٢).

«أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانٌ مُتَكَيِّ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَّا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ مِثْلُ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» (١).

فالسُّنَّةُ مثل القرآن، ليست هي الدرجة الثانية بعد القرآن، لا، مثله سواء بسواء، إذا صحَّت فهي مثله في التشريع سواء بسواء، لأنَّ النبي ﷺ يقول: «وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

يقول الشيخ حافظ -رحمة الله عليه-:

وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ شَاهِدُهُ
في سورة النِّجْمِ فَاخْفَظْهُ وَلَا تَهِمَّ (٢)

لا تضيع على وجهك كالهائم، لا.

وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ كَالْقُرْآنِ شَاهِدُهُ
في سورة النِّجْمِ

إيش شاهده؟ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، فنزَّهه أن يكون ضالاً، وأن يكون

غاوياً، هذان أمران، قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣] هذا هو الثالث، فَمَنْ سَلِمَ مِنَ الضَّلَالَةِ

والغواية والهوى نطق بالحق -بإذن الله تعالى-، فكيف به وهو وحْيٌ من الله ﷻ، قال: ﴿إِنَّ هُوَ

إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝﴾ [النجم: ٤-٦].

فالْحَاصِلُ: هذه هي السُّنَّةُ، وهذه مكانتها، ولا عصمة، ولا نجاة، ولا مخرج من الفتن

المُتَلَاطِمَةُ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَّا بِالْعِضِّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ، والتمسك بها، والأخذ بها بجِدٍّ، وصدق، وعزم،

وحزم على نصرتها، ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ﴾

[الأعراف: ١٥٧].

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» برقم (٤٦٠٤)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في «سننه» برقم (١٢)، وصححه الألباني

في «المشكاة» برقم (١٦٢، ١٦٣).

(٢) من «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية».

ما هو النور الذي أنزل معه - عليه الصلاة والسلام -؟ القرآن ومثله معه - السُّنة -:

﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمن زعم أنه يكتفي بالقرآن عن السُّنة فهو ضالٌّ مُضِلٌّ، فالسُّنة شارحةٌ للقرآن، ومُبيِّنةٌ

له، وأحكامٌ جاءت بها السُّنة مستقلة لا توجد في القرآن، أو تُردُّ على رسول الله ﷺ؟ لا.

كل ما قاله - عليه الصلاة والسلام - وصحَّ عنه فعلى الرأس والعين، فتبذل المهج، وتُفنى

الأعمار، وتطوى الفيافي والقفار، وتُركب البراري والبحار لأجل أن يصح عندنا عن رسول

الله ﷺ حرفٌ واحد، فوالله لأن يصح عندنا عن رسول الله ﷺ حرفٌ واحد أحب إلينا من

الدنيا وما عليها، نتعبد به لربنا - جلَّ وعلا -.

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلني وإياكم من الهداة المهتدين العاملين

الصادقين الناصحين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله

نبينا محمد^(١).

اعْتَنَاءُ

أَبِي قُصَيِّ الْمَدَنِيِّ

- عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَمَشَائِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ -

فِي الثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ عَامِ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

(١) تمت الكلمة، وبقيت الأسئلة لم أفرغها، وما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان من خطأ، أو سهو، أو نسيان، أو غفلة؛ فمني ومن

الشیطان، وأستغفر الله العظيم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.